

﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى . وَلَا يَفْرَنُكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ . يَا أَيُّهَا
 الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ ثم كل ذلك لا ينهنا ولا يخرجنا عن
 أودية غرورنا وأمانينا فما هذه الا محنة هائلة ان لم يتفضل الله علينا بتوبة
 نصوح يتداركنا بها فنسأل الله تعالى أن يتوب علينا بمنه وفضله *

كتاب الفقر والزهد

﴿ فضيلة الفقر والفقراء الراضين الصادقين ﴾

عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْفَقِيرَ الْمُتَمَقِّفَ أَبَالْعِيَالِ ﴾
 وعنه صلى الله عليه وسلم ﴿ يَدْخُلُ قُورَاءُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهَا بِخُمْسَاتِهِ
 عَامٍ ﴾ وعنه صلوات الله عليه ﴿ مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافَى فِي جِسْمِهِ آمِنًا فِي
 سِرْبِهِ عِنْدَهُ قُوَّةُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحِذَافِيرِهَا ﴾ ولما
 طلبت سادات العرب وأغنياؤهم من النبي صلى الله عليه وسلم أن ينحى عن
 مجلسه فقراء الصحابة ترفعا عن مجالستهم اذا جلسوا اليه نزل قوله تعالى
 ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا
 تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ يعنى الفقراء ﴿ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يعنى الأغنياء
 ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا ﴾ يعنى الأغنياء . واستأذن ابن أم
 مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده رجل من أشرف قريش فشق
 ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم فانزل الله تعالى ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ
 الْأَعْمَى . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾ يعنى ابن

أم مكتوم ﴿ أَمَّا مَنْ اسْتَمْنَى فَأَنْتَ لَهُ تُصَدِّى ﴾ يعنى هذا الشريف وقال يحيى بن معاذ حبك للفقراء من أخلاق المرسلين وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين وعن علي رضي الله عنه مرفوعاً (أحبُّ العباد إلى الله تعالى الفقير القانع برزقه الراضى عن الله تعالى) *

﴿ آداب الفقير في فقره ﴾

اعلم أن للفقير آداباً في باطنه وظاهره ومخالطته وأفعاله ينبغى أن يراعيها (فأما أدب باطنه) فإن لا يكون فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر أعنى أنه لا يكون كارهاً فعلى الله تعالى من حيث أنه فعله وإن كان كارهاً للفقير (وأما أدب ظاهره) فإن يظهر التمتف والتجمل ولا يظهر الشكوى والفقر بل يستر فقره ففي الحديث : أن الله تعالى يحب الفقير التمتف أبا العيال : وقال تعالى ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّمْتِفِ ﴾ وأما في أعماله فأدبه أن لا يتواضع اغنى لأجل غناه قال على كرم الله وجهه ما أحسن تواضع الغنى للفقير رغبة في ثواب الله تعالى وأحسن منه تبه الفقير على الغنى ثقة بالله عز وجل فهذه رتبة . وأقل منها أن لا يخالط الأغنياء ولا يرغب في مجالستهم لأن ذلك من مبادئ الطمع . وينبغى أن لا يسكت عن ذكر الحق مداهنة للأغنياء وطمعاً في العطاء وأما أدبه في أفعاله فإن لا يفتر بسبب الفقر عن عبادة ولا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه فإن ذلك جهد المقل وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى *

﴿ آداب الفقير في قبول العطاء اذا جاءه بغير سؤال ﴾

ينبغي أن يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاثة أمور : نفس المال . وغرض المعطى . وغرضه في الأخذ (أما نفس المال) فينبغي أن يكون حلالا خاليا عن الشبهات فان كان فيه شبهة فليحترز من أخذه *

(وأما غرض المعطى) فلا يخاف إماما أن يكون غرضه تطيب قلبه وطلب

محبه وهو الهدية . أو الثواب وهو الصدقة والزكاة . أو الذكر والرياء والسمعة *

(أما الأول وهو الهدية) فلا بأس بقبولها فان قبولها سنة رسول الله

صلى الله عليه وسلم ولكن ينبغي أن لا يكون فيها منة فان كان فيها منة

فالأولى تركها فان علم أن بعضها مما تعظم فيه المنة فليرد البعض دون البعض

(الثاني) أن يكون للثواب المجرد وذلك صدقة أو زكاة فعليه أن ينظر

في صفات نفسه هل هو مستحق للزكاة فان اشتبه عليه فهو محل شبهة .

وان كانت صدقة وكان يعطيه لدينه فلينظر الى باطنه فان كان مقارفا لمصيبة

في السر لو علمها المعطى لنفر طبعه ولما تقرب الى الله بالتصدق عليه . فهذا

حرام أخذه كما لو أعطاه اظنه أنه عالم أو علوى ولم يكن فان أخذه حرام محض

لاشبهة فيه (الثالث) أن يكون غرضه السمعة والرياء والشهرة فينبغي أن

يرد عليه قصده الفاسد ولا يقبله إذ يكون معينا له على غرضه الفاسد *

(وأما غرضه في الأخذ) فينبغي أن ينظر أهو محتاج اليه فيما لا بد له

منه أو هو مستغن عنه فان كان محتاجا اليه وقد سلم من الشبهة والآفات

التي ذكرناها في المعطى فالأفضل له الأخذ قال صلى الله عليه وسلم ﴿ مَنْ

أتاهُ شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْمَالِ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ وَلَا اسْتِشْرَافٍ فَإِنَّمَا هُوَ رِزْقٌ
 سَاقَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ فَلَا يَرُدُّهُ ﴿١﴾ . فأما إذا كان ما أتاه زائداً على حاجته فلا يخلو
 إما أن يكون حاله الاشتغال بنفسه أو التكفل بأمور الفقراء والافتقار إليهم
 لما في طبعه من الرفق والسخاء فإن كان مشغولاً بنفسه فلا وجه لأخذه
 وامساكه وإن كان متكفلاً بحق الفقراء فليأخذ ما زاد على حاجته فإنه
 غير زائد على حاجة الفقراء وليبادر به إلى الصرف إليهم . وبالجملة فالزيادة
 على قدر الحاجة إنما تأتيك ابتلاءً وفتنة لينظر الله إليك ماذا تعمل فيه وقدر
 الحاجة يأتيك وفقاً بك فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء قال الله
 تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ﴿٢﴾
 ﴿٣﴾ تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب المضطر إليه ﴿٤﴾

إعلم أنه قد وردت مناهج كثيرة في السؤال وتشديدات قال صلى الله
 عليه وسلم ﴿ مَنْ سَأَلَ عَنِّي فَإِنَّمَا يَسْتَكْثِرُ مِنْ جَهَنَّمَ وَمَنْ سَأَلَ
 وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَوَجْهُهُ عَظِيمٌ يَتَقَمَّقَعُ وَلَا يَسْ عَلَيْهِ لَحْمٌ ﴾ ﴿٥﴾ وفي
 لفظ آخر ﴿ كَانَتْ مَسْأَلَتُهُ خَدُوشًا وَكِدُوحًا فِي وَجْهِهِ ﴾ وهذه الألفاظ صريحة
 في التحريم والتشديد . وكان صلى الله عليه وسلم يأمر كثيراً بالتعفف عن
 السؤال وسمع عمر رضي الله عنه سائلاً بعد المغرب فقال لواحد من
 قومه عش الرجل فعشاه ثم سمعه ثانياً يسأل فقال ألم أقل لك عش الرجل
 قال قد عشيتك فظفر عمر فإذا تحت يده مخللة مملوءة خبزاً فقال لست سائلاً
 ولا كنتك تاجر ثم أخذ المخللة ونثرها بين يدي ابل الصدقة وضربه بالدرية

وقال لا تمد . ولولا ان سؤاله كان حراماً لما ضربه ولا أخذ مخالته . وانما استجاز ذلك رضى الله عنه لكونه لاح له فيه انه رآه مستغنيا عن السؤال وعلم ان من أعطاه شيئاً فأنما أعطاه على اعتقاد انه محتاج وقد كان كاذباً فلم يدخل في ملكه بأخذه مع التليس وعسر تمييز ذلك ورده الى أصحابه اذ لا يعرف أصحابه بأعيانهم فبقى مالاً لا مالك له فوجب صرفه الى المصالح وابل الصدقة وعلفها من المصالح نعم يباح السؤال بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة فالضرورة كسؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتاً أو مرضاً وسؤال العارى وبدنه مكشوف ليس معه ما يواريه . وهو مباح مادام السائل عاجزاً عن الكسب فان القادر على الكسب وهو بطال ليس له السؤال الا اذا استغرق طلب العلم أوقاته . وأما المستغنى فهو الذى يطالب الشئ شيئاً وعنده مثله وأمثاله فسؤاله حرام قطعا . وأما المحتاج حاجة مهمة فكالمريض الذى يحتاج الى دواء وكن له جبة لاقيص تحتها في الشتاء وهو يتأذى بالبرد وكن يسأل الكراء لفرس . ولا ينبغي أن يأخذ ما يعلم أن باعته الحياء فانه حرام محض . وما يشك فيه فليستفت قلبه فيه . وليترك حزاز القلب فانه الاثم وليدع ما يريه الى ما لا يريه . وادراك ذلك بقرائن الأحوال سهل على من قويت فطنته وضعف حرصه وشهوته . فان قوى الحرص وضعفت الفطنة تراءى له ما يوافق غرضه فلا يتفطن للقرائن الدالة على المكراهة . وبهذه الدقائق يطالع على سر قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ﴾ وقد ورد في وعيد من يسأل وهو غنى قوله صلى الله

عليه وسلم ﴿ من سأل عن ظَهْرٍ غَنَى فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَهْرًا فَلْيَسْتَقِلَّ مِنْهُ أَوْ
أولَيْسَتْ كَثِيرًا ﴾ وقد ورد في حد الفنى المحرم للسؤال آثار مختلفة متنوعة
يمكن تنزيلها على اختلاف أحوال المحتاجين إذ الحاجة لا تقبل الضبط .
فأمرها منوط باجتهاد العبد ونظره لنفسه بينه وبين الله تعالى فيستفتى فيه قلبه
ويعمل به إن كان سالكا طريق الآخرة نسأله تعالى حسن التوفيق بإظفه *
﴿ فضيلة الزهد وحقيقته ﴾

قال تعالى ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ
الحياة الدنيا لِنَفْسِهِمْ فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ وقال تعالى (من كان
يريد حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يَرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ
مِنْهَا وَمَالَهُ فِي الآخرة مِنْ نَصِيبٍ ﴾ وفي حديث عمر رضی الله عنه انه لما
نزل قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ
الله ﴾ قال صلى الله عليه وسلم ﴿ تَبَا لِلدُّنْيَا تَبَا لِلدُّنْيَا تَبَا لِلدُّنْيَا تَبَا لِلدُّرْهَمِ ﴾ فقلنا
يارسول الله نهانا الله عن كنز الذهب والفضة فأبى شئ ندخرف فقال صلى الله
عليه وسلم ﴿ لِيَتَّخِذَ أَحَدُكُمْ إِسَانًا ذَا كِرًا وَقَلْبًا شَا كِرًا وَزَوْجَةً صَالِحَةً
تُهَيِّنُهُ عَلَىٰ أَمْرِ آخِرَتِهِ ﴾ وعنه صلى الله عليه وسلم ﴿ السُّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ
اللهِ قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ وَالْبَخْلُ بَعِيدٌ مِنَ اللهِ بَعِيدٌ
مِنَ النَّاسِ قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ ﴾ والبخل ثمرة الرغبة في الدنيا والسخاء ثمرة
الزهد والثناء على الثمرة ثناء على المثمر لا محالة . وعنه صلى الله عليه وسلم
﴿ إِزْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبِّكَ اللهُ وَأَزْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبِّكَ النَّاسُ ﴾

ثم ان اصناف ما فيه الزهد تكاد تخرج عن الحصر وقد ذكر الله تعالى في آية واحدة سبعة منها فقال تعالى ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ثم رده في آية أخرى الى خمسة فقال عز وجل ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ ثم رده في موضع آخر الى اثنين فقال تعالى ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ ﴾ ثم رد الكل الى واحد في موضع آخر فقال ﴿ وَنَحَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس في الدنيا فينبغي أن يكون الزهد فيه * والحاصل ان الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها الى ما هو خير منها علما بأن المتروك حقير بالاضافة الى المأخوذ *

واعلم انه قد يظن ان تارك المال زاهد وليس كذلك فان ترك المال واظهار الخشونة سهل على من أحب المدح بالزهد بل لا بد من الزهد في حظوظ النفس وينبغي أن يعول الزاهد في باطنه على ثلاث علامات *

(الأولى) أن لا يفرح بوجود ولا يحزن على مفقود كما قال تعالى ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ * (الثانية) أن يستوى عنده ذامه ومادحه (الثالثة) أن يكون أنسه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة الطاعة *